ملامح التجديد في فكر الأفغاني في التعامل مع القرآن الكريم وأثره في منهج التفسير في العصر الحديث

د. زياد خليل محمد الدغامين (*)

* أستاذ مشارك في التفسير وعلوم القرآن.

ملخص البحث:

لم يترك الأفغاني أثرا تفسيريا تظهر فيه خطوات المنهج الذي سلكه في التعامل مع القرآن الكريم، ولكنه – مع هذا – عُدّ من المجدّدين الباعثين روح النهضة في الأمّة على أسس القرآن وهداياته، ويرجع ذلك إلى أمرين يؤدّي أحدهما إلى الآخر:

الأول: النظر إلى القرآن على أساس أنه كتاب هداية وإعجاز ومنهج حياة وهو السبيل الذي لا بديل عنه إلى وحدة الأمة. والاقتصار على استثمار النصّ القرآني ليكون الحلّ الجذري للقضايا الواقعة في المجتمع الإسلامي، ومحاولة التغلّب على مشكلاته، والتنبيه إلى ما يواجهه من تحدّيات وأخطار. ومن ثمّ تحميل العلماء مسؤولية القيام بهذه المهام.

الثاني: طبيعة القضايا التي توجّه اليها الأفغاني، فتراه لم يعن بالقضايا الجزئية عنايته بالقضايا الكلية والجوهرية. ولم يشغل العقل المسلم بقضايا لا تمت إلى الواقع بصلة. إن القضايا التي توجّه اليها لا يعرض لها إلا ذوو الهمم العالية الذين ينقشون آثارهم على صفحات التاريخ بدماء قلوبهم، ومداد أقلامهم.

ورأى في اللغة العربية مقصدا ووسيلة، أما المقصد فلكونها سببا من أسباب قوّة الدولة، وكم عاب على السلطنة العثمانية عدم وعيها لقيمة اللغة العربية، وأما الوسيلة فلكونها أساسا مهمّا في فهم القرآن الكريم لا يصحّ بدونها.

وكان حريصا على الاستشهاد بالسنّة النبوية، لبيان معانيها الجوهرية، وأثرها في المحصول المعرفي للحضارة الإسلامية.

ولقد عزف الأفغاني عن كل ما يشغل المتفهّم للقرآن عن روح هدايته، فلم يشتغل بالإسرائيليات أواختلاف أهل اللغة والفقه والفلسفة ... . مع أن شرحه لكتاب في علم الكلام – التعليقات على شرح الدوّاني – تضمن ذكر بعض الاختلافات. أقول: إن هذا الكتاب قيّد فكر الرجل وأسره على الرغم من تصويره لمبلغ علمه وعمق عقليته وإتقانه لهذا الفنّ، لكنك لا تكاد ترى فكرا متميّزا بعيدا عن الجدل الكلامي، وكل الذي يمكن رؤيته هو فلتات من هذا الأسر تتبدّى على

لسان السيد جمال الدين، وتصوّر من طرف خفيّ عجز هذا العلم عن مواجهة تحديات العصر. وفوق هذا فإنّ الأفغاني باشتغاله بهذا العلم حاول كثيرا أن يبحث للعقل المسلم عن أسباب تنجيه وتوقظه إلى ما يحيط به، حتى ولو أدّى ذلك إلى نبذ علم الكلام.

ويفرض على العقلية المسلمة أن تبني اعتقادها على براهين قويّة، ويرى أنه إن لم يستطع المرء أن يأخذ بنفسه طريق التحقيق في تأسيس جميع عقائده بالبراهين الصحيحة فليعرض عن التأويل. بل كان يدعو إلى عدم الخوض في كثير من القضايا التي شغلت الفكر الإسلامي قديما. ويقرر أنه لا يلجأ إلى التأويل إلا لضرورة من دفع معاند أو إقناع جاحد بشرطين، أولهما: قوّة الدليل والبرهان. وثانيهما: التحلّي بالفضائل والأخلاق الكاملة.

لقد كان المنطق الذي انطلق منه الأفغاني في كل اتجاه من اتجاهات الحياة يقوم على الاستجابة لهدي القرآن الكريم، إن في دعوته إلى مقاومة المستعمر، أو في دعوته إلى الوحدة والعدالة، أو في دعوته إلى التعليم الحقّ، أو في اهتمامه باللغة العربية، أو في اشتغاله بالسياسة، أو في دعوته المسلمين أفرادا ومجتمعات إلى الالتزام بهدي القرآن، هذا أولا. وأما ثانيا: فقد جعل الوقوف على السنن الإلهية في الخلق ونظام الاجتماع أساسا مهما في فهم آيات التنزيل، وخلص من دراسة السنن الإلهية في القرآن إلى القول: إن الانحراف عن هدي الله تعالى في كتابه سبب كل شقاء. وقد وظّف هذه النتيجة في إعادة الأمّة إلى كتاب ربّها، واستخدام التفسير لإصلاح علاقتها مع القرآن الكريم.

إن التفسير الذي يريده الأفغاني للقرآن هو ما يتلاءم مع روح العصر ولغته وقضاياه، ويعيش همومه، ويعالج مشكلاته، إنه لا سبيل إلى الفصل بين النصّ والواقع في خلد الأفغاني. من أجل ذلك، لا بدّ من أساس مهم في التعامل مع القرآن الكريم يقوم على تثوير النصّ القرآني، ليفي بحاجات العصر المتجدّدة. ولقد أصاب في اتّباعه هذا المنهج عين الحقّ على المستوى النظري، ولكن كثيرا من الملابسات صرفت كثيرين عن اقتفاء أثر هذا المنهج، فقد أحيط الأفغاني بحملات إعلامية شعواء نالت من دينه وإخلاصه، ووصفته بما لا يليق

... مما حال دون نظرة واعية إلى جهود الأفغاني في فهم القرآن الكريم. والأدهى من ذلك أن تكون فئة المثقفين هي التي غزتها هذه الحملة، أما سائر الأمّة فقد ارتكب خطأ كبيرا بحقّ دينه في تخلّيه عن هؤلاء المصلحين، وتركهم فريسة سهلة للاستبداد السياسي الذي خلع عليهم أوصافا ليست لهم، ونسب لهم من الأقاويل ما لا يليق بهم.

هذه الأسس التي بنى عليها الأفغاني تفسيره استطاعت أن تأخذ مكانها في فكر من تأثّر به من المصلحين أمثال الشيخ محمد عبده، ومحمد رشيد رضا وعبد القادر المغربي وإبراهيم اللقاني وغيرهم، مما أدّى إلى نقلة نوعية في منهج تفسير القرآن في العصر الحديث.

مقدمة:

لعلّ أهم قضية يجب البحث فيها في حياة المصلحين والمجدّدين تتمثل في معرفة الطريق الذي اتّبعوه، والمنهج الذي سلكوه في التعامل مع القرآن الكريم: فهما وتفسيرا وتنزيلا على أرض الواقع، بوصفه الأساس الذي يقوم عليه كل إصلاح وتجديد، والمصدر الذي يُبنى عليه أي فكر يدور في إطار تقويم حياة الإنسان وتوفير السعادة والرخاء له في هذا الوجود، والأخذ بيده لئلا يهوي في مواطن الضعف، أويسقط في مستنقع الأفكار العفنة، والعقائد المصطنعة، والأخلاق المبتذلة. هذه القضية هي التي تكشف عن منهج التعامل مع الواقع بكل ما في هذا الواقع من مصاعب وتحدّيات ومشكلات من منظور القرآن الكريم، هذا من جهة. وتتكشف بذلك - من جهة أخرى - المعاني التجديدية التي تتجلى من خلال النظر في هذا الكتاب، من حيث إن الآية القرآنية توظّف توظيفا واقعيا في عملية الإصلاح والتجديد.

وهذا البحث محاولة متواضعة للوقوف على فكر واحد من الشخصيات التي تبدو في نظر كثيرين متميزة بعبقريتها، وسعة أفقها، وقدرتها على التعامل مع كل حدث، والتحدّث في كل موضوع، كما يقول الأستاذ الإمام محمد عبده في وصف شخصية السيد جمال الدين الأفغاني(*): «إن بعض الناس يوجد

(*) جمال الدين بن صفدر بن علي بن محمد الحسيني، حكيم، واسع الاطلاع في العلوم النقلية والعقلية، أتقن العديد من اللغات، رحل الى مصر، فنفخ فيها روح نهضة إصلاحية في الدين والسياسة، كان شديد المعارضة لسياسة الحكومة المصرية الخاضعة لسلطان الإنجليز، نُفي الى باريس، وأنشأ فيها مع محمد عبده جريدة العروة الوثقى، كان كثير الترحال، دعي إلى الآستانة، وتوفي بها سنة ١٣١٤هـ - ١٨٩٧م. من مؤلفاته: إبطال مذهب الدهريين وإثبات الدين، تتمة البيان في تاريخ الأفغان. والخاطرات، والتعليقات على شرح الدوّاني للعقائد العضدية. انظر عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين (بلا تاريخ) مكتبة المثنى، بيروت. ج ٣، ص: ١٥٤-١٥٥. ج ١٠، ص: ٩٢. وانظر محمد عمارة، الاعمال الكاملة (١٩٨١)، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت. ج ١، ص: ٢٠- ٥٠. اسماعيل باشا البغدادي؛ هدية العارفين (١٩٨٢)، دار الفكر، بيروت. ج ٢، ص: ٣٩٤.

فيهم خاصّية أنهم يقدرون على الكلام بأي موضوع، أمام أي إنسان، سواء كان يدرك الكلام ويقبله أم لا، وهذه الخاصية كانت موجودة عند السيد جمال الدين، يلقي الحكمة لمريدها وغير مريدها، وأنا كنت أحسده على هذا ...»[1]. وإن كانت - هذه الشخصية - لا تبدو كذلك في نظر آخرين.

إنّ التوجّه لدراسة فكر هذه الشخصية ضرورة لازمة على الرغم من الجدل الكثير - العقيم - الذي رافق سيرته الذاتية، وذلك لأنه وصف في رأي الأكثرية بأنه باعث الروح في النهضة الإسلامية الحديثة، والداعي الأكبر إلى الجامعة الإسلامية، وهو فضلا عن ذلك مصلح مجدّد مفترى عليه. إن الذي يهمنا هنا هو التعرّف على الأساس الذي انطلق منه في الإصلاح؛ لنتبيّن ملامح المنهج العلمي الذي سلكه في التعامل مع القرآن، وأثر هذا الفكر في مدارس التفسير الحديثة التي استقت ونهلت من معين فكره، وعليه فستنقسم الدراسة إلى مبحثين وخاتمة: سيحاول المبحث الأول الوقوف على ملامح التجديد في فكر السيد جمال الدين الأفغاني في التعامل مع القرآن. وسيقتصر المبحث الثاني على بيان أثر فكر الأفغاني في منهج تفسير القرآن في العصر الحديث. وستبلور الخاتمة أهم النتائج التي توصلت اليها هذه الدراسة. وبالله تعالى الهداية والتوفيق والاستعانة، وبه سبحانه الرشاد والسّداد في القول والعمل.

---

(١) انظر: محمد رشيد رضا، تفسير القرآن الحكيم الشهير بتفسير المنار (بلا تاريخ)، دار الفكر، بيروت. ١/١٣-١٤.

المبحث الأول

ملامح التجديد في فكر الأفغاني

في التعامل مع القرآن الكريم

إن الهمّة العالية، والذكاء المفرط، وقوّة الإرادة التي كان يتصف بها الأفغاني جعلت منه شخصية فريدة قادرة على الإصلاح، إنه على ما يقول محمد الغزالي:«عزيز النفس، شامخ الأنف، متوكل على الله ... وما كان يرى نفسه دون الخليفة»(٢). هذه الصفات جعلت الصديق والعدو يخشاه ويحترمه. ويفترض في كل باحث أن ينظر بحقّ إلى مصدر هذا التكوين الفكري الذي صقلت به شخصية الأفغاني، ثم الطريق الذي خطّه في الإصلاح.

إن الأفغاني في دعوته إلى الإصلاح قد وضع تحرير الأمّة من نير الظالم المعتدي نصب عينيه، فتراه يحرّض على الثورة ضدّه، ويؤلب الجماهير للوقوف في وجهه، ثم يلقي باللائمة على جمهور المسلمين الذين يفتقرون إلى وعي بالقرآن، وفهم لسنن الله في الأمم والمجتمعات، والتزام بهدي الله تعالى وشرعه. ويعتصم بذلك بآيات القرآن، والسنّة النبوية، والسيرة الشريفة له ﷺ وما لهما من اتصال ببيان معاني كتاب الله عزّ وجلّ.

يذكر المفكر المسلم مالك بن نبي أن الأفغاني قد وقف شاهدا على الإفلاس الروحي والمادي في العالم الإسلامي، ومن ثمّ أعلن على الفور الحرب ضد النظم البالية، وضد الأفكار المميتة، وكان هدفه الأول: أن يقوّض دعائم نظم الحكم الموجودة آنذاك، كيما يعيد بناء التنظيم السياسي في العالم الإسلامي على أساس الأخوّة الإسلامية التي بددتها النظم الاستعمارية. وكان هدفه الثاني: أن يكافح المذهب الطبيعي أو المذهب المادي(٣).

(٢) محمد الغزالي؛ علل وأدوية (١٩٨٨)، دار القلم، دمشق. ص: ١٠١.

(٣) انظر: مالك بن نبي؛ وجهة العالم الإسلامي (١٩٨١)، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق. ص: ٤٤.

مقاصد التفسير عند الأفغاني:

أقول: لقد اتّبع الأفغاني أسسا مهمّة في منهج فهم القرآن الكريم وتفسيره استقاها من روح الهدي النبوي، هذه الأسس توجّهت كما يذكر محمد رشيد رضا إلى تحقيق ثلاثة أمور:

الأول: «بيان سنن الله في الخلق ونظام الاجتماع البشري وأسباب ترقّي الأمم وتدلّيها، وقوّتها وضعفها.

الثاني: بيان أن الإسلام دين سيادة وسلطان جمع بين سعادة الدنيا وسعادة الآخرة، ومقتضى ذلك أنه دين روحاني اجتماعي ومدني عسكري، وأن القوّة الحربية فيه لأجل المحافظة على الشريعة العادلة، والهداية العامّة، وعزّة الملّة، لا لأجل الإكراه على الدين بالقوّة.

الثالث: بيان أن المسلمين ليس لهم جنسية إلا دينهم، فهم إخوة لا يجوز أن يفرقهم نسب ولا لغة ولا حكومة. إنه وإن كان هذا الكلام من فكر الأستاذ الإمام، لكن كان بإرشاد من السيد جمال الدين الأفغاني وإدارته وسياسته، وهو أستاذه في هذا المنهج ومربيه عليه»[٤]. وهذا توجّه بصير إلى فهم مقاصد تفسير القرآن الكريم بما تتطلبه مقتضيات نهضة المجتمعات الإسلامية وضروراتها.

لكن البحث لا يكتفي بهذه الأسس فقط فيما يظهر في أعمال السيد الأفغاني، فهناك أسس أخرى لا تقل أهميتها عما ذكر صاحب المنار، ويمكن استنباطها من خلال تلك الأعمال. إن منهج الأفغاني في فهمه لكتاب الله تعالى وتوظيف آياته الكريمة، كان يهدف – في مجمله – إلى تحقيق السبيل لنهضة إسلامية شاملة.

(٤) محمد رشيد رضا، تفسير المنار، مرجع سابق. ج ١، ص: ١١.

أسس التفسير عند الأفغاني:

أولا: توجيه التفسير لإصلاح علاقة المسلم بالقرآن الكريم

لا يبدو أن القرآن بحاجة إلى تفسير في نظر الأفغاني بالمعنى المعهود لمصطلح تفسير في منهجه الذي سار عليه علماء الأمّة من كل اختصاص في تتبعهم لمفردات الآية، وبيان معناها واشتقاقها وتصريفها وإعرابها، وما فيها من بلاغة وفصاحة وبيان، وما تتضمنه من إرشادات وهدايات، وما علق بتفسيرها من مصطلحات العلوم والفنون؛ ولذلك لم نره يترك أثرا في تفسير القرآن على هذا النهج والأسلوب، ولا على غيره، على الرغم من اقتداره عليه، وعلى تمكنه من كثير من العلوم، فقد زاره محمد عبده بعد ما حلّ في مصر برفقة الشيخ حسن الطويل، قال:«فوجدناه يتعشّى، فدعانا إلى الأكل معه، فاعتذرنا، فطفق يسألنا عن بعض آيات القرآن، وما قاله المفسرون والصوفية فيها، ثم يفسرها لنا، فكان هذا مما ملأ قلوبنا به عجبا وشغفها حبّا ...»(٥).

ومع ذلك كله لم يكن يرى في عملية تفسير القرآن كله أي جدوى عملية تنهض بواقع الأمّة، وتأخذ بها من كبوتها، فالمكتبة الإسلامية زاخرة بعشرات من كتب التفسير التي لم يحدث كثير منها الأثر المطلوب في عملية التغيير الاجتماعي، «إن الأفغاني كان يسعى جاهدا لإحداث هذه العملية، لإعادة عصر هارون الرشيد على حدّ قوله»(٦).

وقد كان تلميذه محمد عبده على مثل هذا الرأي، فحين ألحّ عليه محمد رشيد رضا من أجل تفسير القرآن، كان جوابه: «إن القرآن لا يحتاج إلى تفسير من كل وجه، فله تفاسير كثيرة، أتقن بعضها ما لم يتقنه بعض، ولكن الحاجة شديدة إلى تفسير بعض الآيات(٧). هذه قناعة الشيخين الأفغاني وعبده،

---

(٥) محمد عمارة؛ جمال الدين الأفغاني موقظ الشرق وفيلسوف الإسلام (١٩٨٨)، دار الشروق، القاهرة. ص: ٥٣.

(٦) عمارة؛ الأعمال الكاملة، مرجع سابق، ج ١، ص: ٩٤.

(٧) رضا، تفسير المنار، ج ١، ص: ١٢.

والسبب في ذلك أن المنهج الذي سلكاه اعتمد – أساسا – على توظيف الآية القرآنية لإحداث عملية التغيير الاجتماعي والسياسي. إنه منهج يهدف إلى تحويل الآية إلى واقع عملي بدلا من السير على النمط المعهود الهادف إلى تثقيف المسلم بألوان شتّى من المعارف والعلوم، وتضخيم حجم التفسير على القدر الذي يريده المفسر، «فالتفسير الذي يحتاجه العقل المسلم في رأي الأفغاني ينبغي أن يتّجه إلى جوهر الدين، ليفسَّر تفسيرا يتلاءم مع روح العصر، ويرى أنه لو أحسن تفسير القرآن والسنّة لكان الإسلام كفؤا لإحداث تطور راق عظيم»(٨).

إنه يكفي في نظر الأفغاني أن نفهم القرآن فهما يسعى بنا إلى تحقيق مقاصده الكلية، ويحوّل الآية إلى واقع عملي، فيكون بذلك سبب عزّة وقوّة للمسلمين. إنه حين ينظر في الآية تجده يبحث عن فاعليتها وسلطانها في واقع حياة الفرد أو الأمّة، فتراه – مثلا – يعيب على أمّة يبلغ تعدادها خمسين مليونا – تمتد من أدرنة التركية إلى بيشاور الأفغانية – التفرّق وعدم الاتجاه إلى الوحدة، مع أن الاتفاق من أصول دينهم، ويقول: «أليس لكل واحد أن ينظر إلى أخيه(*) بما حكم الله في قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات:١٠].

(٨) انظر: عبد الباسط محمد حسن؛ جمال الدين الأفغاني وأثره في العالم الإسلامي (١٩٨٢)، مكتبة وهبة، مصر. ص: ١٩٣.

(*) يرى المفكر المسلم مالك بن نبي أن الأفغاني كان رائد الحركة الإصلاحية الحديثة حين قصد الى إعادة التنظيم السياسي للعالم الإسلامي بمعنى تنظيم جموع الشعب وإصلاح القوانين، ولكن المشكل في هذا أنه لم يقصد الى إصلاح الإنسان الذي صاغه عصر ما بعد الموحدين، ومن ثمّ فشلت دعوته في الثورة على تلك النظم والقوانين؛ لأن الثورات تخلق قيما اجتماعية جديدة صالحة لتغيير الإنسان، ولم يحسن جمال الدين تشخيص الدافع الى تلك الثورة. ويرى أن كل ثورة إسلامية لن تكون ذات أثر فعّال ما لم تؤسس على مبدأ المؤاخاة، لا على أساس الأخوة الإسلامية؛ لأن المؤاخاة فعل ديناميكي، بينما الأخوة عنوان على معنى مجرد، أو شعور تحجر في نطاق الأدبيات. انظر، وجهة العالم الإسلامي، مرجع سابق، ص: ٤٥-٤٦. لكننا قد وجدنا اهتماما – لا بأس به عند الأفغاني – بصناعة إنسان الثورة، لكن لا على القدر الذي يؤهله للثورة على تلك النظم والقوانين.

فيقيموا بالوحدة سدّا يحوّل عنهم هذه السيول المتدفقة عليهم من جميع الجوانب؟ ! ولا يعني بذلك أن يكون لها سلطان واحد، بل أن يكون سلطانهم جميعا القرآن، ووجهة وحدتهم الدّين» ويحث بكل ما أوتي من منطق وحكمة وفصاحة لسان على الوحدة، ويقول: «إن القرآن حيّ لا يموت، ومن أصابه من حمده فهو محمود، ومن أصيب من مقته فهو ممقوت، كتاب الله لم ينسخ فارجعوا إليه وحكّموه في أحوالكم وطباعكم، وما اللّه بغافل عما تعملون»[(٩)].

وتراه يناقش أوضح الأمور التي بات العقل المسلم في غفلة عنها، وكان إذا ذكرت أمامه كلمة التوحيد قال:«إن الناس لو فهموا معناها لما استعانوا إلا بالله، ولما طلبوا المدد إلا من الله، وكان يقول: «ما أكثر الجرائد السياسية والعلمية والأدبية في هذه البلاد – مصر – مع أن أهاليها في حاجة إلى جريدة أبسط من ذلك كله، إلى جريدة تقول لهم: اغسلوا أرجلكم ... اغسلوا أيديكم»[(١٠)].

وليس هذا وعظا يتوجه به الأفغاني إلى العقل المسلم، ولكنه منهج يعالج به شيئا من أزمة المسلم؛ لأن المشكلة – في رأيه – تتمثل في طريقة فهم كل مسلم للقرآن حيث بات في غفلة عن أبسط واجباته الدينية والحياتية، لذلك تراه يبيّن له أهم ما يجب عليه القيام به، «وهو العمل بأحكام القرآن وتطبيقها تطبيقا دقيقا، وأن يقتدي بأسلافه في الصدر الأول من المسلمين، وأن يخلص النيّة وصفاء الباطن، وخدمة المجتمع والابتعاد عن البخل والحسد والطمع، وأن يلتزم بساطة العيش والعمل بالواجبات، واجتناب المحرمات، فهذه هي الوسيلة الناضجة التي اتبعها أسلافنا فنجوا»[(١١)]. إنه يعمل على استنهاض الهمم للعمل بالقرآن، هذا ما تتطلبه عملية النهضة في جانب مهم من جوانبها. إنّه لا بدّ من إعادة بعث روح المسلم من جديد، ليستقيم الجوهر مع العرض، والمظهر مع

---

(٩) انظر: عمارة، الأعمال الكاملة، مرجع سابق، ج ٢، ص: ٢٨–٢٩.
(١٠) انظر: عبد الباسط محمد حسن، جمال الدين الأفغاني وأثره في العالم الإسلامي، ص: ١٩٣.
(١١) عمارة، الأعمال الكاملة، ج ٢، ص: ٦٧.

المخبر، والظاهر مع الباطن في شخصيته وبنائه النفسي والروحي. إنّه يبحث عن هداية القرآن في سلوكه، ليطمئن إلى البناء الذي يقوم على كاهله عملية النهضة.

إن طريق استشهاده بالآية أو تفسيره لها ليس له إلاّ معنى واحد فقط هو تنزيلها على أرض الواقع والالتزام بها، يشهد لذلك: تفريقه بيننا وبين الأوائل من أسلافنا في نهوضهم للعمل ومبادرتهم إليه استجابة لهداية القرآن، فيقول: «من العبث القيام لعمل قياس مع السلف الصالح، ولو كان القياس مع الفارق لهان الأمر وخفّ الشر، ولكنه العكس التام، فإذا قلنا: إن السلف كان لا ينقض عهدا ولا يخلف وعدا، وأردنا أن نعلم ما نحن عليه من هذا القبيل فما علينا إلا أن نعكس الأمر، فيكون نحن الخلف، لا نحفظ عهدا ولا نفي وعدا، وهكذا مضاؤهم في العمل وتسويفنا، وإيجازهم وتطويلنا، وصبرهم وجزعنا، وشجاعتهم وإقدامهم وجبننا وإحجامنا، وعزّة نفسهم وإباؤهم وذلنا واستكانتنا، والى ما هنالك من المحزنات «إن الله لا يغيّر ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم»[(١٢)].

إنه يضع المسلم أمام حقيقة واضحة من أمر قرآنه، حقيقة تتعلق بصدق اليقين والاعتقاد وجدّية العمل بمضمونه، لكي تسير الحياة على وفق ما خطّ ورسم، ولكي تتبوّأ الأمّة مكانتها بين الأمم، فيذكر أن آيات الكتاب الحكيم تهدي إلى الحق، ولا يرتاب – في ذلك – إلا القوم الضالّون، ويوجّه الخطاب قائلا: هل يخلف الله وعده ووعيده؟ وهو أصدق من وعد، وأقدر من أوعد؟ هل كذب الله رسوله؟ هل غش خلقه وسلك بهم سبيل الضلال؟ نعوذ بالله من ذلك ... أليس قد أنزل قرآنا عربيا غير ذي عوج؟ يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٥]. ويقول: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨] ... هذا ما وعد الله في محكم الآيات، مما لا يقبل تأويلا، ولا ينال هذه بالتأويل إلا من ضل

(١٢) نفسه، ج ٢، ص: ٥٨.

عن السبيل، ورام تحريف الكلم عن مواضعه»[١٣]. هذه هي الروح الغالبة على فكر الأفغاني في تعامله مع كتاب الله تعالى فهما وإفهاما.

ويحث المسلم على الصبر تحقيقا لمطلب السعادة، ففي عرض مقارنته بين الشرق والغرب رأى أن الغربي أكثر صبرا من الشرقي، وعزا إلى عدم الصبر خسارة كل حقّ. مع أن أكثر ما ورد في القرآن ذكر الصبر ولزومه، وهذا يدل على أنّ الأمّة العربية خصوصا، والمسلمة عموما أحوج ما تكون إلى الصبر والثبات على كل ما في الأخلاق المؤدية للسعادة البشرية[١٤].

إن الفكر الذي يقوم عليه خطاب الأفغاني والروح الغالبة عليه تشي بأنّ أزمة الأمّة نابعة من طريقة فهمها لكتاب ربّها وتعاملها معه بهذا البرود، أو ذلك الجمود والتقاعس، والمهمّة الأساس للخروج من ذلك هي التذكير لا التنظير في التفسير، هي استنهاض الهمم للعمل، واستثارة غيرتها للعودة إلى كتاب ربّها، وسنّة نبيّها ﷺ، وإزالة كل الحواجز المانعة من ذلك.

وفي هذا السياق يتساءل عن سبب عدم وحدة المسلمين وآيات الله صريحة في الدعوة إلى ذلك، ويرى أن التعاون بين الشعوب الإسلامية واجب وفريضة، ويدعو الفرس والأفغان إلى التضامن عملا بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾﴾»[آل عمران: ١٠٥][١٥]. وهذا يعني أن تفسير الآية في نظره ليس إلا إيجاد واقع عملي يتناغم مع مقصدها، ويستجيب لروح هدايتها.

الاستقراء الموضوعي:

نجد من ناحية أخرى أن طريقة استشهاده بالقرآن تعبّر عن استقراء موضوعي لآياته الكريمة، ففي عرض حديثه عن الوحدة والاتّفاق وحظر المنابذة

---

(١٣) انظر: عمارة، الأعمال الكاملة، ج ٢، ص: ٥٨-٥٩.
(١٤) نفسه، ج ٢، ص: ٧٥.
(١٥) نفسه، ج ٢، ص: ٢٧٠.

يستشهد بالقرآن والسنّة، ويورد الآيات الكريمة مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾. وقوله: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الحجرات ٩]. وقوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾[آل عمران: ١٠٥]. وقوله ﷺ: «المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص». وبقوله ﷺ: يد الله مع الجماعة». وقوله: لو دُعيت إلى حلف الفضول لفعلت»[١٦].

إنه لا يمكن الفصل بين النصّ والواقع في فكر الأفغاني، ويعبّر عن ذلك صراحة بقوله: «أيعقل من مخلص لدين الله، واثق بوعد الله في نصر من ينصره، الثابت في قوله تعالى: ﴿إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ۝٧﴾ (محمد: ٧). أن يتخلف عن بذل المال، وبيع الروح في سبيل الله؟!! كلا!»[١٧]. فالمسألة تعبّر عن ثقة ويقين وقوّة اعتقاد بهذا الكتاب، وعمل به، ووقوف عند حدود ما أنزل الله تعالى فيه.

إن القرآن – في مفهوم الأفغاني – كتاب جاء يطالب الناظرين بالبرهان على عقائدهم، ويعيب الأخذ بالظنون والتمسك بالأوهام، ويدعو إلى الفضائل وعقائل الصفات. فأودع في أفكارهم جراثيم الحقّ، وبذر في نفوسهم بذور الفضل، فهم بأصول دينهم أنور عقلا، وأنبه ذهنا، وأشدّ استعدادا لنيل الكمالات الإنسانية، وأقرب إلى الاستقامة في الأخلاق[١٨].

ويتجّه الأفغاني إلى الوقوف على مقاصد الشرائع التي بعث بها الأنبياء، لتقريرها في مسلك حياة الناس، ليسودها الأمن والأمان والطمأنينة، يقول: إننا لا نجد في شرائع الأنبياء إلا الدعوة لمعرفة مبدأ الحق، وهو الله، والحث على

---

(١٦) نفسه، انظر: ج ٢، ص: ٣٠-٣٢.
(١٧) نفسه، ج ٢، ص: ٣٣.
(١٨) نفسه، ج ٢، ص: ٢٦.

الفضائل، وفعل الخير، والزجر عن الرذائل والشرور. وبعبارة ثانية: لا نلقى بها إلا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ولكن إذا نظرنا إلى الكثير من الذين تبعوا الأنبياء فإنّا نراهم قد استعملوا تلك الشرائع للشقاق والنفاق، واتّخذوها وسائط لاضرام الفتن، ووسائل لإلقاء الإحن، حتى أمكن للشاعر العربي أن يقول:

إن الديانات ألقت بيننا إحنا ... وأورثتنا أفانين العداوات

وما مثل هؤلاء إلا كمثل رجل قلّد السيف لقتل الأعداء، فاستعمله في قتل الأحباء، فبئس ما كانوا يفعلون»[١٩].

«ويقلل الأفغاني من شأن ما تراكم على القرآن الكريم وتجمع حوله من آراء المفسرين، وما استنبطوه من أحكام»[٢٠]. لأنه يعدّ ذلك ابتعادا عن روح الهداية القرآنية، وما اشتمل عليه القرآن من المنافع الدنيوية والأخروية.

هذا هو الأساس الأول الذي يراه الأفغاني في التعامل مع كتاب الله تعالى قبل كل أساس، والذي يشترك فيه كل فقيه ومتفقه، وعالم ومتعلم، وكبير وصغير، ورجل ومرأة، وفرد وأمّة.

حامل القرآن في نظر الأفغاني

حتى تتأتى مهمّة استثارة همم الناس للعودة بهم إلى كتاب الله وإصلاح منهج التعامل معه، لا بدّ للعلماء من القيام بمسؤولياتهم تجاه الغافلين النائمين؛ ليعلّموهم دينهم، ويحذروهم سوء العاقبة لولم يتداركوا أمرهم بالرجوع إلى ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه، ورفض كل بدعة، والخروج من كل عادة سيئة لا تنطبق على نصوص الكتاب العزيز، ويقصّوا عليهم أحوال الأمم السابقة، وما

---

(١٩) علي شلش، سلسلة الأعمال المجهولة لجمال الدين الأفغاني (بلا تاريخ)، رياض الريّس للكتب والنشر، لندن. ص: ٧٩.

(٢٠) فهد الرومي، منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير (١٤١٤) مؤسسة الرسالة، بيروت. ص: ٨٦.

نزل بها من قضاء الله عندما حادت عن شرائعه ونبذت أوامره: ﴿فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلۡخِزۡيَ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾ (الزمر: ٢٦)[٢١].

أقول: يفترض الأفغاني في حملة القرآن أن يقوموا بإعلاء كلمة الله، ولا يخافوا في الله لومة لائم، ولا يخشوا الجبابرة في الحقّ والسيف؛ لأن الإسلام قد غدا بين ثورات الجنون ونزعات الزندقة في خطر عظيم[٢٢]. إن العلماء هم العين الساهرة على مصلحة البلاد والعباد، ولذلك يحمّلهم الأفغاني مسؤولية كبرى في إصلاح الأمّة، فهم حماة الدين، وقادة المؤمنين، وحزب الله في العالم، وجنوده الغالبة على الأمم.

إنه يدعوهم للأخذ بيد الأمّة؛ لإزالة الظلم الذي حلّ بها من جرّاء ما اقترفته أيدي حكامها، إن من يحمل كتاب الله تعالى لا بدّ أن يكون هاديا للأمّة، ولسانا للحقّ. لقد كان يحرّض العلماء على خلع بعض السلاطين، بسبب ظلمهم وفرضهم الضرائب التي لا حدّ لها على الشعب. إن اضطهاد سلاطين الهند الخاضعين لإمرة الإنجليز لحملة القرآن أو المعتقد ببعض آياته[٢٣]. أمر يستحق استثارة أهل الغيرة لمنعه، والثورة ضدّه.

في هذا الإطار يحدّد الأفغاني وظيفة الفرد المسلم والعالم المسلم وتوجيههما نحو الإصلاح، فالفرد المسلم يجب أن يصلح علاقته بالقرآن فهما والتزاما. والعالم حامل القرآن ينبغي أن يدرك المنطلقات والميادين التي يتوجّه إلى العمل فيها، والأهداف التي يسعى لتحقيقها.

---

(٢١) عمارة، الأعمال الكاملة، ج ٢، ص: ٥٤، ٦٤-٦٥.
(٢٢) شلش، سلسلة الأعمال المجهولة، مرجع سابق، انظر: ص: ١٣٢.
(٢٣) عمارة، الأعمال الكاملة، انظر: ج ٢، ص: ٢٧٩-٢٨١، ٢٩٣.

ثانيا: التوجّه إلى معالجة القضايا الكبرى

يرى محمد الغزالي أن الأفغاني ذو خلق متوكل وثيق الصلة بربّه، راسخ القدم في دينه، قال: «وما سمعت قبله ولا في عصره من كشف أحقاد الصليبية العالمية، وألّب الجماهير ضدها، وشنّ غارات شعواء على المستبدّين والظلمة، ونفخ من أنفته في الشعوب الراكدة المستعبدة، يحضّها على العمل لدينها ودنياها، إن الرجل كان صاحب هذا الصوت»[٢٤]. فقضاياه التي توجّه اليها كلية جوهرية ذات طابع سياسي، تحيط بالأمور الجامعة التي تلمّ شمل المسلمين ضاربا عرض الحائط بالقومية الجنسية والأرض والتراب، داعيا إلى الجامعة الإسلامية التي تربطه بكل فرد مسلم على وجه الأرض على دستور القرآن الكريم ومنهاجه.

إنّ الأفغاني يعلّق على الرابطة الدينية المبنية على أسس القرآن وهداياته أملا كبيرا في الوحدة الإسلامية، ويذكر أنّ المسلمين في مصر وغيرها ما دام أن رابطتهم المليّة أقوى من روابط الجنسية واللغة، وما دام القرآن يُتلى بينهم، وفي آياته ما لا يغيب على أفهام قارئيه، فلن يستطيع الدهر أن يذلهم.[٢٥].

ولما كان هذا المنهج يهدف إلى تحقيق التحلّي بآيات الكتاب وتنزيلها على أرض الواقع، كانت القضايا الأساس التي توجّه اليها السيد جمال الدين كلها قضايا ذات اتصال وثيق بالواقع، لكن لا على المستوى الجزئي الفرعي، بل على المستوى الكلي الجوهري.

لقد أولى الأفغاني عناية فائقة لقضايا الأمّة ذات الشأن الكبير، كالتعاون بين الشعوب. والبحث في أسباب تخلّف المسلمين. والبحث في مبدأ الشورى ونظام الحكم. والأمّة وسلطة الحاكم المستبدّ[٢٦]. والعدل وعدم الجور والظلم ...

---

(٢٤) محمد الغزالي، علل وأدوية، مرجع سابق، ص: ١٠١-١٠٢.

(٢٥) عمارة، الأعمال الكاملة، ج ٢، ص: ص: ٣٤١.

(٢٦) المرجع السابق، انظر: ج ٢، ص: ٥٣، ٦٢، ٣٢٩.

وهذه قضايا تمس ضمير كل فرد مسلم ووجدانه، وتبيّن له حجم مسؤوليته من أجل تحقيق النهضة والتحرر من الظلم والاستبداد والاستعباد. هذا التوجّه هو الذي ترك للأفغاني سيرة حافلة خالدة في سجل التاريخ على الرغم من ضآلة جهده في العمل التفسيري التطبيقي، لكن انطلاقته إلى الإصلاح كانت عن وعي حقيقي لمبادئ القرآن الكريم وتعاليمه، وهذا هو المطلوب أساسا من المفسر الرشيد. ولنستعرض بعض الموضوعات التي وجّه الأفغاني اليها عنايته، لنطلع على الحسّ الذي تميز به في عرضها:

أ – محاربة الظلم ومقاومة الاستبداد:

يقول في موضوع الظلم مثلا: «إن الجور عن الاعتدال، والميل في الجمعيات البشرية يسبب دمارها، لهذا حثت الأوامر الإلهية على العدل، وكثر النهي في الكتاب المجيد عن الظلم والجور، والحكام أول من توجّه اليهم الأوامر والنواهي في هذا الباب. العدل هو الحكمة التي امتنّ الله بها على عباده، وقرنها بالخير الكثير فقال: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾» [البقرة: ٢٦٩] وهي مظهر من أجل مظاهر صفاته العلية، فهو الحكم العدل، وهو اللطيف الخبير»(٢٧). وفي هذا نفخة من روح ابن خلدون رحمه الله.

لم يعرّف الأفغاني القرآن تعريفا نظريا، ولكن عرّفه بأثره ووظيفته والمهمّة التي جاء يؤدّيها في هذا الوجود، ومن حقّه أن يقوّم كل معوج، ويرفض كل ظلم، ويصدع بالحق في وجه كل طغيان ... و ليؤسس هداية الله، ويغرسها في أحناء القلوب وأعماق الوجدان. ومن حقّه كذلك أن يقف بالمرصاد لكل انحراف يحاربه ويعاديه، ويحرّض الناس على مقاومته لينتصر الحق والفضيلة، ولتتحقّق العدالة، استمع اليه وهو يقول: إن القرآن كتاب لا يرضى بالذلّة والهوان أو السقوط في سلطة الأجانب، إن هذا الكتاب يعِدُ أهله أن يظهر شأنهم على

---

(٢٧) نفسه، ج ٢، ص: ٥٣.

شؤون العالم أجمع. وبتركهم إيّاه تأخّروا عن غيرهم في المعارف والصنائع بعد أن كانوا أساتذة العالم. إن هذا الكتاب سبيل نهضة شاملة[٢٨].

لقد غلب الطابع السياسي على مقالات الأفغاني الإصلاحية، وبذل جهدا كبيرا في التصدّي للأخطار السياسية المحدقة بالأمّة من قبل المستعمر الغاصب، فقام يحرّض على الثورة ضده، إعلاء لكلمة الله؛ يؤيّد ذلك أن ما من آية في القرآن الشريف إلا وهي داعية إلى السعي لإعلاء كلمة الله وبسطة الملك وعموم السيادة، جاهرة بمطالبة المسلمين بالجدّ فيه، حاظرة عليهم أن يتوانوا في أداء المفروض منه، ومن الأوامر الشرعية: أن لا يدع المسلمون تنمية ملّتهم حتى لا تكون فتنة، ويكون الدين كلّه للّه. وفي السّنة المحمّدية والسيرة النبوية مما يضافر آيات القرآن[٢٩].

ب - الدعوة إلى إصلاح الدولة وإبعاد الغرباء عن الحكم:

عزا الأفغاني ما أصاب الأمّة من ضعف وتفرّق ونزول إلى عدم اتفاق كلمة المسلمين والاتّحاد بينهم، فتفرّق الكلمة يؤدّي إلى هذا الضعف؛ لأن كلا سيشتغل بمصلحة نفسه. لقد أوجب هذا التفرّق انقسام السلطنة العربية أولا، واضمحلالها ثانيا. وقد كانت ممتدّة إلى جبال بريني -جبال البرانس في شمال اسبانيا وجنوب فرنسا - وشعاب الهملايا والسلطنة التيمورية العظيمة في الهند - ما زالت إلا بهذا السبب. وإن ضعف العثمانيين في هذه الأيام ما نشأ إلا عن تزعزع أركان الاتفاق الحقيقي بينهم. نعم إن الله لا يغيّر ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم[٣٠].

وحين رأى أن الدولة العثمانية كان يشغل أرقى المناصب فيها غير المسلمين أقلقه ذلك، وأنذر سوء عاقبته قائلا:«ومتى رأيت الغريب قد دبّ وتسنّم ذرى المراتب في الدولة، فبشرها بسوء المصير». ثم يستشهد بقوله تعالى:

---

(٢٨) نفسه، انظر: ج ٢، ص: ٢٦.
(٢٩) نفسه، ج ٢، ص: ٣٢.
(٣٠) شلش، الأعمال المجهولة، ص: ١٠٩-١١٠.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ۝١١٨﴾ [آل عمران: ١١٨](٣١).

ويجعل للدّين الاعتبار الأول والمكانة الأولى في سرّ قوّة الدولة واستمرارها، ويقرّر أن إهمال الدّين مؤذن بخراب الدّول وسقوطها، يقول: لا تتكون الدول إلا بقوتين: قوة الجنس، وقوّة الدين ... والسبب الأعظم، والفاعل الأكبر في السقوط هو إهمال ما كان سببا في النهوض والمجد وعزّة الملك، وهو ترك حكمة الدين والعمل بها، وهي التي جمعت الأهواء المختلفة، والكلمة المتفرّقة، وكانت للملك أقوى من عصبية الجنس، وقوّته(٣٢).

ج – الدفاع عن بيضة الإسلام:

لقد واجه الأفغاني حملات المشككين القائلين بأن الحميّة للدّين تحول دون نور العلم والمعرفة، وترمي في ظلمات الجور والظلم والعدوان ... فيقول: كذب الخرّاصون، إن الدّين أول معلم، وأرشد أستاذ، وأهدى قائد للأنفس إلى اكتساب العلوم، والتوسع في المعارف، وأرحم مؤدّب، وأبصر مروّض يطبع الأرواح على الآداب الحسنة والخلائق الكريمة. ويقيمها على جادة العدل، وينبّه فيها حاسّة الشفقة والرحمة، خصوصا دين الإسلام، فهو الذي رفع أمّة كانت من أعرق الأمم في التوحش والقسوة والخشونة، وسما بها إلى أرقى مراقي الحكمة والمدنية في أقرب مدّة، وهي الأمّة العربية(٣٣).

وقد بيّن الصورة الحقيقية للإنجليز، وحذّر من شرورهم، ونبّه إلى ما اقترفوه بحقّ المسلمين من جرائم بتشويههم صورة الإسلام ونبي الإسلام، فيقول: «إن الإنجليز تحكم خمسين مليونا من المسلمين في الهند، ولا يرون

---

(٣١) عمارة، الأعمال الكاملة، انظر: ج ٢، ص: ٣٩، ٤٧.
(٣٢) نفسه، انظر: ج ٢، ص: ٣٧–٣٨.
(٣٣) نفسه، انظر: ج ٢، ص: ٤٢. كان للعرب أخلاق شماء، وبعض الفضائل، فأن يوصفوا أنهم أعرق الأمم في التوحش ... تعميم ومبالغة وشئ من عدم الدّقة.

لهم حقا عليهم، ولا يختلج بالهم وجوب مراعاتهم، ولا احترام ديانتهم. إن قسس البروتستانت المغرورين يقومون في شوارع البلاد الهندية على سوقهم، ويطعنون في الديانة الإسلامية طعنا تقشعر منه الأبدان، ويفتعلون من الأراجيف ما تصطك منه الآذان، ويختلقون أقوالا يستبشعها الأوباش، وينسبون إلى سيدنا محمد ﷺ في رسائلهم من الشنائع والفظائع ما تنبو عنه الطباع، وكل هذا بمرأى من الحكومة ومسمع من الأمّة الإنجليزية. وما تسمع من أحد منها إنكارا، ولا ترى في وجوهها من هذه التعديات اغبرارا(٣٤).

د – الدعوة إلى سيادة مبدأ المساواة ومحاربة التفرّق العرقي:

يولي الأفغاني أهمية إلى أصول الدين الإسلامي وشمولها، ويرى أنها ليست قاصرة على دعوة الخلق إلى الحقّ، وملاحظة أحوال النفس الإنسانية من وجهة كونها روحانية مطلوبة من هذا العالم الأدنى إلى عالم أعلى، بل – هي كما كانت كافلة لهذا – جاءت وافية بوضع حدود المعاملات بين العباد، وبيان الحقوق كليّها وجزئيّها، وتحديد السلطة الوازعة التي تقوم بتنفيذ المشروعات، وإقامة الحدود وتعيين شروطها ... وكل فخار تكسبه الأنساب، وكل امتياز تفيده الأحساب لم يجعل له الشارع أثرا في وقاية الحقوق وحماية الأرواح والأموال والأعراض. وكل رابطة سوى رابطة الشريعة فهي ممقوتة على لسان الشارع، والمعتمد عليها مذموم، والمتعصب لها ملوم، فقد قال ﷺ: (ليس منا من دعا إلى عصبية، وليس منا من قاتل على عصبية، وليس منا من مات على عصبية). والأحاديث النبوية والآيات المنزّلة متضافرة على هذا. ولكن يمتاز بالكرامة والاحترام من يفوق الكافة في التقوى –اتباع الشريعة – ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات:١٣](٣٥).

---

(٣٤) شلش، الأعمال المجهولة، انظر: ص: ١١٥–١١٦.

(٣٥) عمارة، الأعمال الكاملة، ج ٢، ص: ٣٥، ٤١.

ثالثا: بيان السنن الإلهية

قصّر المفسرون السابقون على ما يقول الشيخ رشيد رضا «في بيان ما هدى اليه القرآن والحديث من سنن الله تعالى في الأمم، والجمع بين النصوص في ذلك، والحثّ على الاعتبار بها، ولو عُنوا بذلك عنايتهم بفروع الأحكام، وقواعد الكلام؛ لأفادوا الأمّة ما يحفظ دينها ودنياها»[٣٦]. والقرآن الكريم في حديثه عن الأمم والمجتمعات والأقوام قد أوقف الأمّة الإسلامية على رأس التاريخ، لتعيه وتدرسه، ولتقود البشرية على طريق قويم، آخذة بكل تجارب الأمم السابقة.

والأفغاني بعقليته الفذّة لم يفته إدراك هذه السنن في الأمم والمجتمعات، بل هو من الأوائل الذي نادوا في العصر الحديث بضرورة جعل هذه السنن أساسا مهمّا من أسس فهم القرآن وتفسيره، فهي سبيل نهضة وتغيير وتجديد في مسيرة حياة الأمّة. لذلك تراه يعزو ما نحن فيه من ذلّ وهوان على أمم الأرض إلى إهمال العمل بهذه السنن. ويبيّن أن ما وصلنا اليه من ذلّ واستكانة أمام الأجنبي الغاصب هو بسبب عدم إدراكنا لسنن الله تعالى: ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ﴿٦٢﴾﴾ [الأحزاب: ٦٢] إنّ الله جعل بقاء الأمم بالتحلّي بالفضائل، وهلاكها ودمارها في التخلّي عنها. ولذلك يطالب بالعودة إلى قلوبنا لنمتحن مداركنا، ونسبر أخلاقنا، ونلاحظ مسالك سيرنا، لنعلم هل نحن على سير الذين سبقونا بالإيمان[٣٧].

ويعنى الأفغاني كثيرا بالسنن الكونية خاصّة فيما يهمّ الأمّة والدولة، فتراه يستشهد بالآيات القرآنية المبيّنة لضرورة الوقوف على هذه السنن، ليعي الدرس الحقيقي الذي تتحقّق به العبرة والموعظة. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَتَكُونَ لَهُمۡ قُلُوبٞ يَعۡقِلُونَ بِهَآ أَوۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۖ فَإِنَّهَا

(٣٦) رضا، تفسير المنار، ج ٧، ص: ٤٩٩-٥٠٠.

(٣٧) عمارة، الأعمال الكاملة، ج ٢، ص: ٦٠.

﴿لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج: ٤٦]، يقول: وذلك ليريهم قضاءه الحق، وحكمه العدل فيمن سلف ومن خلف، فيطيعوا أوامره، ويقفوا عند حدود شرائعه، ويفوزوا بخير الدنيا وسعادة الآخرة. من كان له قلب يعقل، وعين تبصر، وعقل يفقه، وتتبع حوادث العالم، وتدبّر كيفية انقلاب الأمم، وخاض في تواريخ الأجيال الماضية، واعتبر بما قصّ الله علينا في كتابه المنزل، يحكم حكما لا يخالطه ريب، بأنه ما حاق السوء بأمّة، وما نزلت بها نازلة البلاء، وما مسّها الضرّ في شئ إلا وكانت هي الظالمة لنفسها بما تجاوزت حدود الله، وانتهكت حرماته، ونبذت أوامره العادلة، وانحرفت عن شرائعه الحقّة، وحرفت الكلم عن مواضعه، وأوّلت من كلامه تعالى على حسب الأهواء والشهوات»(٣٨).

ويؤكد هذا المعنى قائلا: إن من نظر نظرة في أحوال الشعوب ماضيها وحاضرها، ولم يكن مصابا بمرض القلب، وعمى البصيرة، أدرك سرّ أمر الله: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ﴾ [آل عمران: ١٠٣]، وسرّ نهيه في قوله: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ﴾ [الأنفال: ٤٦]، أي: جاهكم وعظمتكم وعلوّ كلمتكم(٣٩).

إن انحطاط الأمم وسقوط حضاراتها يكون حين تغلّب جانب المادّة واللذّة على الروح والعقل، وإن انهماكها بالترف والفجور يؤذن بزوالها وانقراضها، ولهذا يدعو الأفغاني إلى النظر في آثار السابقين للتحقّق من هذه السنّة الإلهية والاتّعاظ بها، فيقول: «هذه آثار المترفين في كل أمّة تنطق بما لا يعجم إلا على أذن صماء، وتشهد بما لا يخفى إلا على بصيرة كمهاء، وإن فيما قصّ الله علينا من أحوال المترفين لأكبر عبرة: ﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةِۭ بَطِرَتۡ مَعِيشَتَهَاۖ فَتِلۡكَ مَسَٰكِنُهُمۡ لَمۡ تُسۡكَن مِّنۢ بَعۡدِهِمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ وَكُنَّا نَحۡنُ

---

(٣٨) نفسه، ج ٢، ص: ٥١.
(٣٩) نفسه، ج ٢، ص: ٥٢.

ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾ [القصص: ٥٨]. ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَجْـَٔرُوا۟ ٱلْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾ [المؤمنون: ٦٤ - ٦٥] ﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ (غافر: ٧٥)، هذه عواقب اللاهين بحظوظهم عما أوجب الله عليهم: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ [طه: ١٢٤][٤٠].

ويدعو - في هذا المقام - إلى تدبّر القرآن ليُعلم أن الانحراف عن هدي الله تعالى في كتابه سبب كل شقاء، فيقول: «لو تدبّرنا آيات القرآن، واعتبرنا بالحوادث التي ألمت بالممالك الإسلامية، لعلمنا أن فينا من حاد عن أوامر الله، وضلّ عن هديه، ومنّا من مالَ عن الصّراط المستقيم الذي ضربه الله لنا وأرشدنا اليه، وبيننا من اتّبع أهواء الأنفس وخطوات الشيطان: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ [الأنفال: ٥٣][٤١].

إن الوقوف على سنن الله في الأمم والمجتمعات من الأسس الضرورية التي ينبغي النظر فيها عند التعامل مع النصّ القرآني.

ويوجب العمل بمقتضى سنّة الأخذ بأسباب القوّة على إطلاقها ويرى أن أهم مظهر من مظاهر هذه القوّة العصبية الاعتقادية لدين الإسلام[٤٢]، وهي السبيل لتوحيد الكلمة، واجتماع الشمل[٤٣] ثم اتباع أوامر الشرع الإسلامي ونواهيه بحكم قوله تعالى:«إنّ الله لا يغير ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم»[٤٤].

---

(٤٠) نفسه.
(٤١) نفسه ج ٢، ص: ٥٢-٥٣.
(٤٢) انظر: جمال الدين الأفغاني؛ العروة الوثقى (١٩٨٣)، دار الكتاب العربي، بيروت. ص: ٨٥.
(٤٣) المرجع السابق نفسه، ص: ٨٨.
(٤٤) نفسه، ص: ١٠٥.

وفي المقابل يرى أن للضعف في القوّة أسبابا، أعظمها تخالف طلاب الملك فتعدد الملكة على المسلمين كتعدد الرؤساء في قبيلة واحدة، وهذا يؤدّي إلى شغل أفكار العامّة والذهول عن تحصيل العلوم والصنائع، ونشأ من هذا ما تراه من الفاقة والاحتياج، وعقبه الضعف في القوّة، والخلل في النظام(٤٥).

ويدعو إلى الاعتبار بأمّة الروس كيف تنبهوا إلى الأخذ بأسباب القوّة، فقال:«إنها أمّة متأخرة في الفنون والصنائع عن سائر أمم أوربا، وليس في ممالكها ينابيع للثروة، ولئن كانت فليس هناك ما يستفيضها من الأعمال الصناعية، فهي مصابة بالحاجة والإعواز، غير أن تنبّه أفكار آحادها لما به يكون الدفاع عن أمّتهم واتفاقهم في النهوض به وارتباط قلوبهم، صيّر لها دولة تميد لسطوتها رواسي أوروبا. فما الذي أقعدنا عن مشاكلة غيرنا، فيما هو أيسر الأشياء علينا، ونحن أشدّ الناس ميلا إليه من رعاية شرف الملّة والتألم بما يحطّ منه، والتعاون على صون الوحدة الجامعة لنا عن كل ما يثلمها؟ ... ما أقعد عن الهمم إلا أولئك المترفون»(٤٦).

لقد أولى الأفغاني موضوع السنن عناية فائقة، وعقد له مباحث خاصّة في العروة الوثقى(*).

رابعا: أثر اللسان العربي في فهم القرآن

لم يكن عند السيد جمال الدين أيّة حساسية تجاه اللغة العربية، وقد شهد له كثيرون بوقوفه على أسرارها، بل «على يديه تقدّم فنّ الكتابة في مصر»(٤٧). وقد وصل إلى قناعة تامّة أن اللغة العربية هي السبيل إلى وحدة جامعة بين

---

(٤٥) نفسه، ص: ١٠٩.

(٤٦) نفسه، ص: ١١١.

(*) انظر: مبحث سنن الله في الأمم وتطبيقاتها على المسلمين، الأعمال الكاملة، ج ٢، ص: ٥٥ – ٦١

(٤٧) عمارة، الأعمال الكاملة، ج ١، ص: ٣٣.

المسلمين، ولا تطمح أمّة الإسلام أن ترقى بدونها، ولا سبيل إلى فهم القرآن الكريم وما فيه من شرائع وهدايات إلا بها[٤٨].

ومن العيوب التي سجّلها الأفغاني على الدولة العثمانية: أنّها لم تتخذ غير القوّة المادية آلة، ولم ينقلوا سواها للبلاد المفتوحة. يقول: «نعم إنهم تديّنوا بالإسلام في فتوحاتهم على أبسط حالاته وأشكاله بكمال التعبّد، ولكن على بعد سحيق من فهم معاني القرآن وآداب اللسان[٤٩].

بل قد ذهب الأفغاني إلى أبعد من هذا، فقد عزا بعض أسباب ضعف الدولة العثمانية إلى عدم اعتمادها اللغة العربية، وعاب عليها أنها لم تترك أثرا لها في البلاد التي فتحتها، أو التي خضعت لها كبلغاريا وصربيا واليونان ورومانيا والجبل الأسود، وكانت هذه الدول محكومة لسلطنة العثمانيين. لقد تسنّى لهذه الدّول المحافظة على جامعاتها من دين ولسان وتاريخ، ولذلك كان خروجها من سلطان العثمانيين واستقلالهم أمرا محتما وقوعه لا مردّ له: «سنّة الله في الذين خلوا من قبل». ولو انتشرت اللغة – العربية – والدعوة الإسلامية وقبلتهما الأمّة المستعمرَة لاشتركوا معهم بجامعتي اللسان والدين، ولكان الارتباط أشدّ وأوثق. ولو سعت الدولة – العثمانية – بأن تتخذ اللسان العربي وهو لسان الدين لسانا رسميا، وتسعى بكل قوّتها وجهدها لتعريب الأتراك، لكانت في أمنع قوّة، وآمن حصن من الانتقاض والخروج عن سلطانهم، ولو فعلت ذلك لكان إعادة عصر الرشيد للمسلمين ميسورا، ولكنها فعلت العكس، إذ فكرت بتتريك العرب، وما أسفهها سياسة، وأسقمه من رأي! لأن تدين الأتراك بالدين الإسلامي على جهل باللسان العربي جعل لهم في القلوب منزلة، ساقت وتسوق الأمّة العربية للعطف عليهم مع سائر المسلمين[٥٠].

لقد كان تأثر الأفغاني وأسفه عميقا كلما افتكر بما ارتكبه الأتراك من

---

(٤٨) نفسه، ج ١، ص: ٩٠، ٩٢-٩٣.
(٤٩) نفسه، ج ٢، ص: ٣٢٠.
(٥٠) نفسه، انظر: ج ٢، ص: ١٠-١٤.

الخطأ في عدم قبولهم اللسان العربي، لسان الدين الطاهر والأدب الباهر، وديوان الفضائل والمفاخر، مع أن اللسان التركي لو تجرد من الكلمات العربية والفارسية لكان أفقر لسان على وجه الأرض[٥١].

ويوجّه الأفغاني نقدا مرّا إلى العرب والترك الذين لم يستثمروا اللغة العربية –لغة القرآن – في إرساء دعائم الحضارة الإسلامية في البلاد المفتوحة، لما للغة العربية من أثر في تثبيت دعائم الحضارة الإسلامية. إن الذين لم يتركوا أثرا أدبيا أو عمرانيا، أو الذين تركوا ولكن لم يحافظوا على العدل قد زال كل ما صنعوه. وخلف من بعدهم خلف يتغنى بأمجاد الآباء، ولم يعمل بالقانون الإلهي وبقوله تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ (النجم: ٣٩)، والسعي أدل على النجاح، وأحسن ما تربّى عليه الناشئة[٥٢].

وهذا يعني أن أهمية اللغة العربية لا تتوقف عند حدود بيان معاني القرآن الكريم في تقدير الأفغاني، ولكنها – في الوقت نفسه – تكتسب بعدا حضاريا ذا أثر فعّال في تحقيق وحدة المسلمين، وفي تحقيق العبودية لله تعالى سبحانه.

خامسا: عدم اللجوء إلى التأويل إلا لضرورة

للتأويل وجه ذو حدّين في فهم نصوص الكتاب والسنّة، فقد يكون حلاّ لإشكال أو شبهة قد التبست على بعض العقول في فهم نصّ من آية أو حديث. وقد يكون آلة طيّعة بأيدي أصحاب الفرق والمذاهب التي يهمّها – قبل كل شئ – تثبيت أسس مذهبها والانتصار له، وبناء قواعده على صيغة معينة من التأويل مما يعبّر عن هوى فكري، وانشغال عن المهامّ الرئيسة والمقاصد الكلية

(٥١) نفسه، ج ٢، ص: ١٦.
(٥٢) نفسه، ج ٢، ص: ٣٢١.

للقرآن الكريم. ويعبّر كذلك عن ابتعاد عن هدي النبوّة في تأصيله منهج فهم القرآن الكريم والعمل به، أعني: التأويل بمفهومه الثاني.

لقد جرّ التأويل وما زال يجرّ إلى حرب فكرية بين عدد من المذاهب الفكرية التي يجمعها إطار الإسلام، وتشكل هذه الحرب عقبة كأداء في طريق النهضة والوحدة الإسلامية، وتؤدي أيضا إلى انشغال عن الواقع الحياتي للأمّة بكل ما فيه من تحدّيات ومشكلات وعداء سافر يبديه العدوّ المتربص بها جهارا نهارا. هذه الجبهات الداخلية المفتوحة على أصحابها ظاهرة مَرَضية خطيرة، بل إسفين قاتل في قلب وحدتها وتعاونها.

ونظرا لطبيعة المعركة التي يقف الأفغاني على ثغرة منها، لم يشأ أن يزيد من بلاء الأمّة فينشغل ويشغلها بمماحكات لفظية مضى عليها حين من الدهر. لقد نصّب من نفسه حكما بين أصحاب المذاهب الذين لم يألوا جهدا في تأويل الآية لتطابق قاعدة من قواعدهم، أو رأيا يتبنّاه مذهبهم، أو غير ذلك. ويدعو إلى نبذ التقليد في اتّباع المذاهب الكلامية، ويرشد العاقل المستنير إلى أن يقيم بنفسه الأدلة الصحيحة على العقائد من دون التأثر بما قاله أصحاب المذاهب، وإن لم يستطع الوصول إلى ذلك فليطرق عن التأويل. ففي تعليقاته على شرح الدّوّاني استعرض السيد جمال الدين تأويلات الفرق في الحديث الوارد في افتراق الأمّة، وذكر أن الفلاسفة والصوفية والمعتزلة وأهل السنّة والشيعة والمجسمة كل يدّعي أنه المقصود بالفرقة الناجية، وبعد أن بيّن إشكال فهم الحديث رأى أن المذهب الحقّ الذي يرشد اليه الشرع والعقل في ذلك:«أن يذهب الناظر المتديّن إلى إقامة البراهين الصحيحة على إثبات صانع واجب الوجود، ثم منه إلى إثبات النبوّات، ثم يأخذ كل ما جاءت به النبوّات بالتصديق والتسليم بدون فحص فيما تكنّه الألفاظ، إلا فيما يتعلق بالأعمال على قدر الطاقة، ثم يأخذ طريق التحقيق في تأسيس جميع عقائده بالبراهين الصحيحة، كائناً ما أدت إليه ما كان(*)، لكن بغاية التحرّي والاجتهاد، ثم إذا فاء من فكره إلى ما

(*) هكذا في الأصل، ولعل قصده منها هو أن يؤسس المسلم جميع عقائده على الأدلة والبراهين الصحيحة، سواء وافقت أو خالفت ما عليه أصحاب المذاهب الكلامية.

جاء من عند ربّه، فوجده بظاهره ملائما لما حقّقه، فليحمد الله على ذلك، وإلا فليطرق عن التأويل، ويقول: آمنا به كل من عند ربنا، فإنّه لا يعلم مراد الله ونبيّه إلا الله ونبيّه»[٥٣].

ولا يَدع السيد جمال الدين صريح ما تنطق به الآية القرآنية ليلجأ إلى براهين عقلية تضرب في التأويل بسفه وسذاجة، اعتصاما بما يتقرر لديها من مذهب، ففي موضوع «رؤية الله تعالى» تجده لا يجاوز نصّ الآية القرآنية التي تأيّدت – كما يقول – بأحاديث صحيحة. وفي عرض موازنته بين من يقول برؤية الله ومن يقول بنفيها، يقول: «وليس التكلم مع الفريقين إلا تضييع الوقت فيما لا يفيد، بل الواجب علينا هو الإيمان بأنّ الله يُرى –كما أخبر– على وجه منزّه عما هو من خواصّ الحوادث، وليكن بأيّة قوّة من قوانا، أو بقوّة جديدة يخلقها الله في ذلك الوقت، في أي عضو من أعضائنا، وإن كان القلب[٥٤].

وبهذا يتبيّن حرص الأفغاني على عصمة العقل المسلم، وعدم إشغاله بقضايا فكرية لا يستطيع أن يقطع فيها برأي، لقد صرف العقل المسلم إلى ما ينفع من تحقيق النهضة والحياة الكريمة للإنسان والإنسانية، أو بعبارة أخرى: إشغاله .

وحين تعرّض للتعليق على ما ورد في علم الله، وذكر خوض الفلاسفة فيه والمتكلمين، بيّن ما رآه الأوفق لمقصد التنزيل، والأسلم في الوقوف عند حدود ما أنزل الله، قائلا: «والحق أن هذا البحث بتمامه مما لا ينبغي أن يخوض فيه، ويكفي العبد أن يوقن بأنّ الله لا يخفى عليه خافية، ودليله أنه خلق الكليات والجزئيات بإرادته على حسب علمه، فكيف يفوت علمه شئ منها. أما كيفية العلم فهي من الغيب الذي استأثر به، ويستحيل على عقولنا أن تصل إليه[٥٥]. وهذا هو المطلوب شرعا أن يؤمن به المكلّف، وليس من مقاصد القرآن تفصيل عالم الغيب بحسب ما يشتهي العقل، ويكفيه الاعتقاد الكلّي اليقيني المجمل في مثل هذه القضايا، لأن مجال العقل ينتهي عند أوّل عتبة من عالم الغيب.

---

(٥٣) انظر، عمارة، الأعمال الكاملة، ج ١، ص: ٢١٤، ٢٢١.
(٥٤) نفسه، ج ١، ص: ٤٠٠.
(٥٥) نفسه، ج ١، ص: ٣٤٣.

ويرفض مبدأ الفلاسفة في القول بالبعث الروحاني، لكنه يبيّن أن ليس كل الفلاسفة يقول ببعث الروح فحسب، وأن المقصود به أن تجتمع الأجزاء المتفرقة الأصلية، وتحلّها الحياة، وإن اختلف الترتيب بالشخص، فإنّه لو أعيد إلى مثل التركيب الأول فزيد هو زيد لغة وشرعا وهو الظاهر، ولا يكون تناسخا محالا إلا لو كانت الأجزاء أجنبية عن بدن الروح، وإلا فيلزم التناسخ في كل من زاد عمره عن عشر سنين. فإنّه قد وقع الاتفاق على أنه في كل عشر سنين يزول جميع أجزاء البدن التي قد كانت أول العمر، ويحدث بدن آخر مع أن هذا لا يعدّ تناسخا بإجماع النافين للتناسخ ومثبتيه. بل يلزم التناسخ في كل يوم صحة بعد مرض، وعكسه، بل في كل يوم لتحقق تطاير الأجزاء البدنية، وتجدّد مثلها في كل حين، فالمجموع المتجدّد غير المنعدم[٥٦].

وبوجه عام فإنّ السيد جمال الدين يدعو إلى الابتعاد عن التأويل، وأن لا يلجأ إليه إلا لضرورة تتمثل في دفع معاند، أو إقناع جاحد. لكن بشرط أن يسلم برهانه من التقليد والتشويش. وبشرط التخلّي عن الرذائل والتحلّي بالأخلاق الكاملة، والأعمال الفاضلة ومنها: تكميل قوّة النظر، وارتكاب طريق العدل في كل شئ ...[٥٧].

إنّ المنهج الذي سلكه الأفغاني في التأويل مبني أساسا على الاعتصام بالحقّ والدفاع عنه، ومتوجّه إلى الحفاظ على وحدة الأمّة وعدم إشغالها بقضايا كلامية أو نظرية مهما كانت. لذلك لم تتولّد لديه أية مشكلة مع نصوص القرآن والسنّة من حيث التأويل، ولم ينشأ إشكال مع تلك النصوص على طريقة أهل المذاهب في الانتصار لمذاهبهم، وليّ أعناق النصوص لتأييدها، أعني: أنه لم يثر مشكلة فكرية من هذا الجانب، وقصر التأويل على ما تدعو اليه الضرورة، مما يتصل بذات الله تعالى أو كلامه أو أسمائه وصفاته ... أو ما يحتاج إلى تأويل، فقد أوّل معنى الكلام في حقّ الله تعالى، وأوّل بعض أسمائه الحسنى[٥٨]. وهذا

---

(٥٦) نفسه، انظر: ج ١، ص: ٤١٦-٤١٧.

(٥٧) نفسه، ج ١، ص: ٢٢٢.

(٥٨) نفسه، ج ١، ص: ٤١٠-٤١١.

التأويل – في الغالب – لم يخرج عن الإطار الكلامي الذهني المعهود، وإن كان السيّد جمال الدين يبدي شيئا من النقد الموشح بالضجر والامتعاض من طريقتهم في الاختلاف في فهم النصوص[٥٩].

وكان يمنع التأويل في بعض الغيبيات، ففي شأن الملائكة مثلا، أوجب الإيمان والتسليم بما وردت به النصوص، وأن علم الكلام قاصر في الإجابة عن كثير من القضايا المتعلقة بالملائكة، كحقيقة وجودهم، وطبيعة خلقهم، وطاعتهم لله تعالى ...[٦٠].

وكثيرة هي الأمثلة التي تبيّن أن الأفغاني يدعو إلى العمل بما في الكتاب والسّنة، فتجده – مثلا – يدعو المؤمنين إلى اليقظة والعمل للوقوف في وجه عدوهم، ففي ذلك خيرهم، و يبيّن أن اللّه تعالى لن يدع المؤمنين حتى يعلم الصادق من الكاذب، وأن الرسول ﷺ ينتظر فيما يعرض عليه من أعمال أمّته نهضة لإعلاء كلمة الحقّ، وإنقاذه من مخالب أعدائه[٦١]. وهذا الفهم استوحاه من نصوص كتاب الله وسنّة رسوله ﷺ.

وقد استشهد بالسنّة في بيان فضل فارس، تذكيرا لهم بما قدّموا من إسهام رائع في العلوم الإسلامية، فليذكر أهل فارس هذا، وليكونوا دعامة للوحدة الإسلامية الشاملة[٦٢].

إن أسلم طريقة اتّبعها الأفغاني في التعامل مع نصوص السنّة على وجه الخصوص هو البحث في جوهر معانيها، وكيف ارتقت تلك المعاني إلى آفاق سامية، ومعالم بارزة في المحصول المعرفي للحضارة الإسلامية، والذي يهمّه –على ما يبدو – هو التذكير بهذه النصوص، وتوظيفها لإيجاد ذلك الواقع الذي تتحقّق فيه الوحدة الإسلامية والتضامن بين شعوب الإسلام.

---

(٥٩) نفسه، ج ١، ص: ٤٠٦.
(٦٠) نفسه، ج ١، ص: ٤١٠–٤١١.
(٦١) نفسه، ج ٢، ص: ١٤٠.
(٦٢) نفسه، ج ٢، ص: ٢٦٨.

المبحث الثاني

أثر فكر الأفغاني في منهج تفسير القرآن في العصر الحديث

لقد نضجت أفكار الأفغاني وترعرعت في منهج رجلين مستنيرين تلقفا أفكاره بأناة ورويّة، هما: محمد عبده ومحمد رشيد رضا، وللأول نصيب أكبر من هذه الأفكار، والتأثير الحاصل في الفكر الإسلامي المعاصر كان عن طريقهما، خاصّة فيما يتوجّه نحو منهج تفسير القرآن والتعامل معه». لقد اتصل محمد عبده بجمال الدين العالم الديني السياسي، فاستكمل به من صنوف العرفان، والوقوف على سياسة الأمم في هذا الزمان ما جعله كلفا بمصالح أمّته، والعمل لإصلاح أهل ملّته»[٦٣].

وأفصح الشيخ محمد رشيد رضا عن رغبته الصادقة، وحبّه الكبير للتّتلمذ على الأفغاني والأخذ عنه، قائلا: توجّهت نفسي بتأثير العروة الوثقى إلى الهجرة إلى السيد جمال والتلقّي عنه، وكان قد جاء إلى الآستانة، فكتبت اليه بترجمتي ورغبتي في صحبته، وأنه لا يصدّني عنها إلا إقامته في الآستانة لاعتقادي أنه لا يستطيع طول المقام فيها، وعلّلت ذلك بقولي: «إن بلاد الشرق أمست كالمريض الأحمق يأبى الدواء ويعافه لأنه دواء»[٦٤]. هذا اضافة إلى أن كثيرا ممن تتلمذ له، أو تأثّر به كان له حضور مؤثر في الساحة الفكرية في مصر مثل: عبد الله نديم، وعبد الرحمن الكواكبي، وعبد القادر المغربي، وإبراهيم المويلحي، ومحمد المويلحي، وعلي يوسف، وإبراهيم اللقاني، ومحمد إقبال، وبعض الأدباء مثل: يعقوب بن صنوع «أبو نظارة» وأديب إسحق[٦٥].

وتجلّى أهم أثر للأفغاني في إيجاد الهمّ الإصلاحي، والسعي للنهضة بهذه

---

(٦٣) محمد عبد الله دراز؛ دراسات إسلامية (١٩٧٤)، دار القلم، الكويت. ص: ١٧٥.

(٦٤) رضا، تفسير المنار، ج ١، ص: ١١.

(٦٥) عبد الباسط حسن، جمال الدين الأفغاني وأثره في العالم الإسلامي، مرجع سابق، انظر: ١٩٨-٢٣٨.

الأمّة عند كثير من العلماء والمفكرين عن طريق تثوير نصوص القرآن الكريم، وإعادة فهمه فهما صحيحا متجردا من كل ما علق به من معوّقات وحجب، فهماً يتوجّه إلى الواقع ودراسته وبيان الحلّ القرآني للمشكلات التي يواجهها. هذه هي الدائرة التي كان يعمل فيها الأفغاني.

أقول: في مجال تفسير القرآن الكريم والتعامل معه، يظهر ما بيّنه الأفغاني – من ضرورة التأكيد على الاستجابة لهدي القرآن والعمل به – واضحا في كلام محمد عبده ورشيد رضا من بعده، فقد وجّه أقسى عبارات النقد واللوم في مواجهة خمول المسلمين وبعثهم من سباتهم، وتوسّع على لسان عبده ورضا باب النقد إزاء هذا الوضع. استمع لعبارة الشيخ رشيد رضا وهو يقول:«ما كل من أظهر الإيمان مهتدياً بالقرآن، فالمؤمنون بالقرآن على ضروب شتى، ونرى بيننا كثيرين ممن إذا سئل عن القرآن قال: هو كلام الله ولا شك، ولكن إذا عرضت أعماله وأحواله على القرآن نراها مباينة له كل المباينة. القرآن ينهى عن الغيبة والنميمة والكذب، وهو يغتاب ويسعى بالنميمة ولا يتأثم من الكذب. القرآن يأمر بالفكر والتدبّر وهو كما وصف القرآن المكذبين بقوله تعالى: ﴿**الذين هم في غمرة ساهون**﴾ لا يفكر في أمر آخرته، ولا في مستقبله ولا في مستقبل أمّته، ولا يتدبّر الآيات والنذر، ولا الحوادث والعبر[٦٦].

«وإذا كانت الآيات في وصف طائفة من الناس توجد في كل أمّة، فليحاسب بها نفسه كل مسلم يعتقد أن القرآن إمامه، وأنّ فيه هدى له، فإنّها حجة على كثير ممن يدّعون الإسلام بالقول ويعملون بخلاف ما جاء به، ويتّبعون غير سبيله»[٦٧]. «فهل يصلح لمسلم بلغ ورشد وطلب العلم أن لا يجعل القرآن إمامه ويتخذه نورا يمشي به في الناس، ويهتدي به في ظلمات البدع؟»[٦٨].

---

(٦٦) رضا، تفسير المنار، ج ١، ص: ١١.
(٦٧) نفسه، ج ١، ص: ١٥٧.
(٦٨) نفسه، ج ١، ص: ١٨٣.

وكيف يدّعي مسلم أنه كذلك ثم هو لا يقرأ القرآن، أو لا يفهم القرآن، أو لا يعمل بما في القرآن !!

لقد عزف كلا المصلحين الأفغاني وعبده وتبعهما رشيد رضا عن كل ما يشغل التفسير من قضايا لا طائل تحتها، ولا فائدة ترجى منها. فلا مجال للإسرائيليات، ولا للخوض في مسائل الفلسفة والكلام، ولا للإسهاب في قضايا اللغة والنحو والإعراب، ولا في التوسع في فقه الفروع، أوغير ذلك مما يشغل القارئ لكتاب الله عن تفهم هداياته، وتلمس أسرار إعجازه، من حيث كونه كتاب هداية وإعجاز ومنهاج حياة.

وقد اقتفى أثرهما كثير من دعاة الإصلاح وعلماء التفسير ممن تأثر بهذه المدرسة، أمثال: عبد القادر المغربي، ومحمد مصطفى المراغي ...، إنها حركة قد تركت بصمات واضحة في كل مناهج التفسير ذات الطابع الإصلاحي في العصر الحديث بتوجهها إلى تحقيق مقاصد القرآن.

«لقد وصفت الحركة المصرية – في التفسير – أنها تصدر في إصلاحاتها عن تأملات دينية، وأنها مستقلة عن كل تأثيرات أجنبية، وقد هدفت إلى إبطال المنكرات والبدع المعارضة لروح القرآن والسنّة، والاحتفاظ بالطابع المستقل للرجل الشرقي المسلم، ومحاربة مبدأ التقليد الطائش للمنزع الأوروبي، ولا يتصف هذا المذهب – في نظر جولدزيهر – بالوسطية الدينية، بل يطلق عليه اسم: المذهب الوهابي الثقافي. ويعدّ أول محرّك لهذه الاتجاهات السيد جمال الدين الأفغاني، باعث التيار الديني المعروف بالوحدة الإسلامية. لقد كان مكافحا عظيم النشاط في وجه النظام الديني السائد وممثليه، وداعيا متمرّسا بالبيان لحركة التجديد الديني من الرأس إلى القدم»[(٦٩)].

وفي الحقيقة أن منهج الأفغاني في التفسير يقوم أساسا على مبدأ الوسطية الدينية من حيث عمله على تحقيق الخير للناس ونشر العدالة بينهم، والعمل على التحرّر من الهيمنة الغربية. لقد أخطأ جولدزيهر فهم الوسطية

---

(٦٩) اجنتس جولد زيهر، مذاهب التفسير الإسلامي، ترجمة عبد الحليم النجار (١٩٨٣)، دار اقرأ، بيروت. ص: ٣٤٨-٣٤٩.

الدينية التي تنصبّ في رأيه على إتاحة الفرصة والمجال للمقلّدين وأصحاب الاجتهادات الباطلة، ولو أن الأفغاني دعا إلى ترك باب التبعية للغرب مفتوحا على مصراعيه، ولو كان راضيا بالدنيّة في دينه، لكان حامل منهج الوسطية في نظر جولدزيهر وأمثاله.

وإذا كان العمل التفسيري في فكر الأفغاني قد استهدف تحقيق روح القرآن الكريم، فلا جرم أن يكون في رأي بعضهم «أول مفسر في العصر الحديث، وقد عُدّت مقالاته نقطة تحوّل أولى للتفسير في العالم الإسلامي في العصر الحديث»[٧٠]. لقد حمل اتجاه الأفغاني مهمّة تقويم الوعي السياسي من وجهة النظر الإسلامية، وفي استلهام النصّ المقدّس ما يبعث في الناس حمية الكفاح من أجل الحقّ والعدل[٧١]. وهو كذلك أول من جرؤ على التحدث عن الوظيفة الاجتماعية للأنبياء في عالم ساقط هو عالم ما بعد الموحدين كما يقول مالك بن نبي رحمه الله[٧٢].

لكن هناك مفارقات بين الأفغاني ومن تأثّر به أمثال: محمد عبده ورشيد رضا في العمل على تحقيق عملية النهضة. وتعود هذه المفارقات أساسا إلى النهج الفكري في الإصلاح عند كل منهم، ومدى اتصاله بواقع الأمّة، والشريحة الاجتماعية التي يتوجّه اليها الخطاب الإصلاحي، فبينما نجد الأستاذ الإمام محمد عبده قد فارق شيخه الأفغاني في المضيّ على النهج السياسي في العمل، نجد الأفغاني قد ظل على هذا النهج الذي فقد العمل الدعوي والإصلاح الاجتماعي به كثيرا من المكاسب، وجرّ إلى تبعات لم تكن في صالح عملية التغيير نحو الأفضل والأحسن. لقد رجع الأستاذ الإمام إلى الإصلاح التربوي الاجتماعي، أما الشيخ رشيد فقد تأرجح بين الاتجاهين.

وقد تميز تناول جمال الدين للآية القرآنية على صعيد السياسة على طريقة

---

(٧٠) عفت الشرقاوي؛ الفكر الديني في مواجهة العصر (١٩٧٩)، دار العودة، بيروت. ص: ٩١.
(٧١) المرجع السابق نفسه، ص: ١٩٤.
(٧٢) مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، مرجع سابق، ص: ٤٤.

تختلف عن تناول كثير من المفسرين لها، «فقد كانت الآية القرآنية تثير في نفسه معاني متجدّدة تتصل بالواقع السياسي الأليم الذي تحياه الأمّة، فيتسع مفهوم المعنى القرآني عنده بالتطبيق الماهر، على حين أن المفسر القديم قد يكتفي بالوقوف عند مناسبة النزول، أو بيان المعنى العام للآية[٧٣].

«ومع أن فلسفة جمال الدين قد تبدو أحيانا غير متكاملة[*]، فإنّ الحيوية الدافقة التي نعم بها كان لها أثرها في كثيرين ممن اتصلوا به، فلقد ترك جمال الدين من ساروا على نهجه في كفاح الاستعمار، حتى صار تحرير الوطن الإسلامي من الاستعمار الغربي هدف الحركات الإسلامية، حيث آثروا أن يباشروا حركة الإصلاح وتربية الأمة من الداخل قبل الولوج بها في الصراع العسكري، وقد تأثروا في ذلك بمحمد عبده، الذي رأى في السياسة ما يفسد كل شئ. وما يضطهد الفكر والعلم والدين، حتى ليصبح من مثالب جمال الدين في نظره: أنه صرف اقتداره العجيب للسياسة، ولو وجهه للتعليم لأفاد الإسلام فائدة أكبر فائدة[٧٤]. وهذا يعني: أن المجال الذي توجّه اليه السيد جمال الدين في الإصلاح – على أهميته وخطورته – كان ضعيف الأثر في جمهور عوام

(٧٣) عفت الشرقاوي؛ قضايا إنسانية في أعمال المفسرين (١٩٨٠)، دار النهضة العربية، بيروت. ص: ٢٣٠.

(*) ذكر بعضهم أن الأفغاني لم يخلف بناء فكريا ميزته التماسك والتناسق، وأن فكره السياسي مبعثر ومشتت، وقد كان داعية، ولم يكن كاتبا ومفكرا بالمعنى المألوف اليوم. انظر: سمير أبو حمدان؛ جمال الدين الأفغاني وفلسفة الجامعة الإسلامية (١٩٩٢)، دار الكتاب العربي، بيروت. ص: ٦٩. أقول: هذا الذي يظهر من عدم إقباله على الكتابة والتأليف، فلم يجد الرجل وقتا للتأليف والتنظير في الفكر والسياسة، ولكنه عاش روح الفكر الإسلامي الحرّ، ودعا الى روح القرآن بوصفه منهاج الحياة الشامل، والبحث في واقع الرجل العملي يظهر أنه كان مفكرا من الطراز الأول، وكان داعية، وكان فيلسوفا، يشهد لهذا النجاح الذي حقّقه في أرض الواقع، وقوّة أفكاره التي استطاعت أن تجد سبيلا الى أدمغة كثير من الإصلاحيين المعاصرين. ويعدّ مثل هذا النجاح أرفع مرتبة من النجاح الذي حقّقه مفكرون منضبطون في تفكيرهم أمثال: مالك بن نبي، ومحمد إقبال عليهم جميعا رحمة الله تعالى.

(٧٤) المرجع السابق نفسه، ص: ٢٤٣–٢٤٤. وانظر: الفكر الديني، مرجع سابق، ص: ١٩٦.

المسلمين، فلم يمس خطابه كل قلب، ولم يحرّك كل ضمير، ولكنه توجّه إلى فئة محدودة تحمل الهمّ نفسه، والشعور نفسه، ويمكنها الصبر على عواقب الانخراط في هذا الميدان من الإصلاح. ومع أنه اشتغل بالسياسة ولاحق همومها ومشكلاتها إلا أنه لم يعبأ كثيرا بالوسائل المشروعة التي تهيئ لكلامه وأفكاره أن تكون واقعا عمليا، واكتفى ببثّ أفكاره بين المتأثرين به من تلاميذه وبعض السّاسة من الرجال، في حين أن آلية تنفيذ الإصلاح تستدعي جهودا جماعية أكثر انتشارا، ووسائل فاعلة أشدّ تأثيرا، وأساليب محكمة في العمل والتنظير، وجمهورا واعيا من المخاطبين.

لقد وقف الأفغاني على مشكلات الأمّة وكان بها بصيرا، ولكنه لم يستطع أن يتعامل مع هذه المشكلات مجتمعة؛ إذ ينوء بهذا العمل أضخم الجهود الفردية، لذلك نراه يختزل هذه المشكلات كلها؛ ليعيدها إلى المشكلة السياسية، والإصلاح السياسي. وهذا ما حدّ من آفاق شخصية الأفغاني العملاقة كما يرى الأستاذ الإمام. لقد أثمر جهد عمالقة الفكر الإسلامي المعاصرين فأنتج فكرا، ونظّر لعملية التغيير السياسي والنهضة الاجتماعية، ولكنه لم يغيّر واقعا، ولم يتغلّب عليه.

أقول: إن الأفغاني لم يوسّع دائرة إصلاحة لتشمل الميدان الاقتصادي والتربوي والاجتماعي، اعتقادا منه – على ما يبدو – أن الميدان السياسي هو العامل الأهم في التغيير، ولو كان النهج السياسي الذي تسلكه الحكومات الإسلامية آنذاك صحيحا لانعكس أثر ذلك على كل الميادين الأخرى في حياة المسلمين. وهو اتجاه قد يجد معارضة، ويتطلب نقاشا من المعنيين بالفكر الإسلامي المعاصر، خاصّة وأن شمولية الميادين التي تجري فيها عملية الإصلاح تشرك طبقات عديدة من المثقفين في هذه العملية، الأمر الذي قد يحقق نجاحا أكبر.

ويصوّر المستشرق جولدزيهر حجم تأثير الأفغاني بقوله: إن الأفغاني داعية ليس مألوف الطراز، ولما كان قصده إلى تحرير الإسلام من التأثير الأجنبي يتّجه عمليا – في الغالب – إلى الاتجاه السياسي، لم يسمع تماما

صوت المذاكرة الدينية -الكلامية لعمله الفكري عند الجمهور الكبير، وقد تلقى هذا الجمهور مذهبه في الإصلاح الديني الذي أعلنه في دائرة طائفة من التلاميذ المتهافتين عليه، والمقدّسين له عن طريق تلميذه وزميله مرّة في المنفى: محمد عبده[٧٥].

أقول: صحيح أن بين الأفغاني وعبده ورشيد رضا قدرا كبيرا من الاتفاق والوفاق في الأفكار، إلا أن هذا لم يكن على حساب شخصية كل منهم. وليس من تأثر بالأفغاني كان نسخة عنه، ولقد أخطأ جولدزيهر ثانية حين وصف هذه العلاقة بينه وبين تلاميذه بالقداسة، إذ لو كان ذلك كذلك، فكيف نفسّر تحوّل محمد عبده عن نهج الأفغاني في الإصلاح ! لقد تميّز كل منهم بنظرات مستقلة في فهم الكتاب العزيز مع اتفاقهم على مقاصده وغاياته.

أما عن تقدير العقل ومدى سلطته في فهم نصوص الكتاب والسنّة، فقد كان الأفغاني أكثر اتّزانا في ذلك من محمد عبده، وكما أسلفنا، لم نجد مشكلات في التفسير قد أثيرت على يديه، ولم نجده انزلق في تأويلات متكلّفة. لقد كان جلّ اهتمامه أن تنهض الأمّة بهذا القرآن وتقدره حقّ قدره، لتنجو في الحياتين، وتفوز بالسعادتين. في حين كان الأستاذ الإمام قد حمل لواء التوفيق بين الحضارتين: الإسلامية والغربية، من أجل ذلك أعطى العقل سلطة أكبر في فهم النصوص وتأويلها، ليجد التوفيق سبيلا إلى ذلك الهمّ الذي كان يشغله، وليظهر الإسلام في صورة يقبلها العقل المعاصر: الغربي والعربي. لقد كان أشدّ اضطرابا – مع أنه الأكثر أكاديمية وبحثا – في فهم بعض نصوص الكتاب والسّنة. وقد دخل التأويل من باب ضيّق بحجج لا تقوى أمام النقد العلمي.

ومن العجيب – بعد هذا كله – أن الشيخ محمد حسين الذهبي لم يورد للأفغاني جهدا يذكر في هذا الموضوع. ويصعب أن يعلّل الأمر على أساس أن ليس له أثر في تفسير القرآن، حتى وإن كان الأمر كذلك، فإنّ صناعته لعقلية

---

(٧٥) مذاهب التفسير الإسلامي، مرجع سابق، ص: ٣٤٩.

محمد عبده وغيره من المصلحين - أمر حري بأن يسجّل ضمن النشاط المهمّ في حقل بعث روح التجديد في فهم القرآن الكريم في العصر الراهن.

لقد بيّن الشيخ الذهبي - رحمه الله - جهد الشيخ محمد مصطفى المراغي مع أنه من المتأثرين بمدرسة الإصلاح هذه، ومع أنه لم يؤلّف كتابا في التفسير، بل كان ذلك من خلال دروسه - في تفسير بعض آيات القرآن الكريم - التي كان يلقيها في المساجد.

أقول: لقد سجّل بعض الباحثين في مناهج التفسير جهودا لمفسرين تعدّ تفاسيرهم مهملة عند المتخصصين في هذا الفنّ، فقد تُرجم مثلا، لعبد الرحمن ابن مخلوف الثعالبي وكتابه «الجواهر الحسان»، وترجم -كذلك- لأبي الحسن علي بن محمد الخازن، وكتابه «لباب التأويل في معاني التنزيل»، مع أن مثل هذه الكتب لم تغيّر في الفكر ولا في الواقع الإسلامي شيئا، فضلا عمّا فيها من إسرائيليات وغيرها، أفيعدّ جهد الأفغاني أقلّ قيمة من هذه الجهود التفسيرية حتى وإن لم يؤلف كتابا في التفسير؟!

الخاتمة

لم يترك الأفغاني أثرا تفسيريا تظهر فيه خطوات المنهج الذي سلكه في التعامل مع القرآن الكريم، ولكنه – مع هذا – عُدّ من المجدّدين الباعثين روح النهضة في الأمّة على أسس القرآن وهداياته، ويرجع ذلك إلى أمرين يؤدّي أحدهما إلى الآخر:

الأول: النظر إلى القرآن على أساس أنه كتاب هداية وإعجاز ومنهج حياة وهو السبيل الذي لا بديل عنه إلى وحدة الأمة. والاقتصار على استثمار النصّ القرآني ليكون الحلّ الجذري للقضايا الواقعة في المجتمع الإسلامي، ومحاولة التغلّب على مشكلاته، والتنبيه إلى ما يواجهه من تحدّيات وأخطار. ومن ثمّ تحميل العلماء مسؤولية القيام بهذه المهام.

الثاني: طبيعة القضايا التي توجّه اليها الأفغاني، فتراه لم يعن بالقضايا الجزئية عنايته بالقضايا الكلية والجوهرية. ولم يشغل العقل المسلم بقضايا لا تمت إلى الواقع بصلة. إن القضايا التي توجّه اليها – لا يعرض لها إلا ذوو الهمم العالية الذين ينقشون آثارهم على صفحات التاريخ بدماء قلوبهم، ومداد أقلامهم.

ورأى في اللغة العربية مقصدا ووسيلة، أما المقصد فلكونها سببا من أسباب قوّة الدولة، وكم عاب على السلطنة العثمانية عدم وعيها لقيمة اللغة العربية، أما الوسيلة فلكونها أساسا مهمّا في فهم القرآن الكريم لا يصحّ بدونها.

وكان حريصا على الاستشهاد بالسنّة النبوية، لبيان معانيها الجوهرية، وأثرها في المحصول المعرفي للحضارة الإسلامية.

ولقد عزف الأفغاني عن كل ما يشغل المتفهّم للقرآن عن روح هدايته، فلم يشتغل بالإسرائيليات أواختلاف أهل اللغة والفقه والفلسفة ... . مع أن شرحه لكتاب في علم الكلام – التعليقات على شرح الدوّاني – تضمن ذكر بعض الاختلافات. أقول: إن هذا الكتاب قيّد فكر الرجل وأسره على الرغم من تصويره لمبلغ علمه وعمق عقليته وإتقانه لهذا الفنّ، لكنك لا تكاد ترى فكرا متميّزا بعيدا

عن الجدل الكلامي، وكل الذي يمكن رؤيته هو فلتات من هذا الأسر تتبدّى على لسان السيد جمال الدين، وتصوّر من طرف خفيّ عجز هذا العلم عن مواجهة تحديات العصر. وفوق هذا فإنّ الأفغاني باشتغاله بهذا العلم حاول كثيرا أن يبحث للعقل المسلم عن أسباب تنجيه وتوقظه إلى ما يحيط به، حتى ولو أدّى ذلك إلى نبذ علم الكلام.

ويفرض على العقلية المسلمة أن تبني اعتقادها على براهين قويّة، ويرى أنه إن لم يستطع المرء أن يأخذ بنفسه طريق التحقيق في تأسيس جميع عقائده بالبراهين الصحيحة فليطرق عن التأويل. بل كان يدعو إلى عدم الخوض في كثير من القضايا التي شغلت الفكر الإسلامي قديما. ويقرر أنه لا يلجأ إلى التأويل إلا لضرورة من دفع معاند أو إقناع جاحد بشرطين، أولهما: قوّة الدليل والبرهان. وثانيهما: التحلّي بالفضائل والأخلاق الكاملة.

لقد كان المنطق الذي انطلق منه الأفغاني في كل اتجاه من اتجاهات الحياة يقوم على الاستجابة لهدي القرآن الكريم، إن في دعوته إلى مقاومة المستعمر، أو في دعوته إلى الوحدة والعدالة، أو في دعوته إلى التعليم الحقّ، أو في اهتمامه باللغة العربية، أو في اشتغاله بالسياسة، أو في دعوته المسلمين أفرادا ومجتمعات إلى الالتزام بهدي القرآن، هذا أولا. وأما ثانيا: فقد جعل الوقوف على السنن الإلهية في الخلق ونظام الاجتماع أساسا مهما في فهم آيات التنزيل، وخلص من دراسة السنن الإلهية في القرآن إلى القول: إن الانحراف عن هدي الله تعالى في كتابه سبب كل شقاء. وقد وظّف هذه النتيجة في إعادة الأمّة إلى كتاب ربّها، واستخدام التفسير لإصلاح علاقتها مع القرآن الكريم.

إن التفسير الذي يريده الأفغاني للقرآن هو ما يتلاءم مع روح العصر ولغته وقضاياه، ويعيش همومه، ويعالج مشكلاته، إنه لا سبيل إلى الفصل بين النصّ والواقع في خلد الأفغاني. من أجل ذلك، لا بدّ من أساس مهم في التعامل مع القرآن الكريم يقوم على تثوير النصّ القرآني، ليفي بحاجات العصر المتجدّدة. ولقد أصاب في اتّباعه هذا المنهج عين الحقّ على المستوى النظري، ولكن كثيرا من الملابسات صرفت كثيرين عن اقتفاء أثر هذا المنهج، فقد أحيط

الأفغاني بحملات إعلامية شعواء نالت من دينه وإخلاصه(*)، ووصفته بما لا يليق ... مما حال دون نظرة واعية إلى جهود الأفغاني في فهم القرآن الكريم. والأدهى من ذلك أن تكون فئة المثقفين هي التي غزتها هذه الحملة، أما سائر الأمّة فقد ارتكب خطأ كبيرا بحقّ دينه في تخلّيه عن هؤلاء المصلحين، وتركهم فريسة سهلة للاستبداد السياسي الذي خلع عليهم أوصافا ليست لهم، ونسب لهم من الأقاويل ما لا يليق بهم.

هذه الأسس التي بنى عليها الأفغاني تفسيره استطاعت أن تأخذ مكانها في فكر من تأثّر به من المصلحين أمثال الشيخ محمد عبده، ومحمد رشيد رضا وعبد القادر المغربي وإبراهيم اللقاني وغيرهم، مما أدّى إلى نقلة نوعية في منهج تفسير القرآن في العصر الحديث.

(*) انظر: علي شلش، جمال الدين الأفغاني بين دارسيه (١٩٨٧)، دار الشروق، بيروت. ص: ٧٣–٩٨. وانظر: فهد الرومي، منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير، ص: ٩٥–١٠٦.

دليل المصادر والمراجع

١ - الأفغاني، جمال الدين، العروة الوثقى (١٩٨٣)، دار الكتاب العربي، بيروت.

٢ - البغدادي، إسماعيل باشا؛ هدية العارفين (١٩٨٢)، دار الفكر، بيروت.

٣ - جولدزيهر، اجنتس؛ مذاهب التفسير الإسلامي، ترجمة عبد الحليم النجار (١٩٨٣)، دار إقرأ، بيروت.

٤ - حسن، عبد الباسط محمد؛ جمال الدين الأفغاني وأثره في العالم الإسلامي (١٩٨٢)، مكتبة وهبة، مصر.

٥ - أبو حمدان، سمير؛ جمال الدين الأفغاني وفلسفة الجامعة الإسلامية (١٩٩٢)، دار الكتاب العربي، بيروت.

٦ - دراز، محمد عبد الله؛ دراسات إسلامية (١٩٧٤)، دار القلم، الكويت.

٧ - رضا، محمد رشيد؛ تفسير القرآن الحكيم الشهير بتفسير المنار (بلا تاريخ)، دار الفكر، بيروت.

٨ - الرومي، فهد؛ منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير (١٤١٤)، مؤسسة الرسالة، بيروت.

٩ - الشرقاوي، عفت؛ الفكر الديني في مواجهة العصر (١٩٧٩)، دار العودة، بيروت.

١٠- الشرقاوي، عفت؛ قضايا إنسانية في أعمال المفسرين (١٩٨٠)، دار النهضة العربية، بيروت. ص: ٢٢٠.

١١- شلش، علي؛ جمال الدين الأفغاني بين دارسيه (١٩٨٧)، دار الشروق، بيروت.

١٢- شلش، علي؛ سلسلة الأعمال المجهولة لجمال الدين الأفغاني (بلا تاريخ)، رياض الريّس للكتب والنشر، لندن.

١٣- عمارة، محمد؛ الأعمال الكاملة، (١٩٨١)، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت.

١٤- عمارة، محمد؛ جمال الدين الأفغاني موقظ الشرق وفيلسوف الإسلام (١٩٨٨)، دار الشروق، القاهرة.

١٥- الغزالي، محمد؛ علل وأدوية (١٩٨٨)، دار القلم، دمشق.

١٦- كحالة، عمر رضا؛ معجم المؤلفين (بلا تاريخ) مكتبة المثنى، بيروت.

١٧- بن نبي، مالك، وجهة العالم الإلاسلامي، ترجمة عبد الصبور شاهين (١٩٨١)، دار الفكر، دمشق.